

■ محورية العقل والإرادة في الإنثروبولوجيا الكلامية:

يمكـن مـن خـلال تحليـل عناصـر الهويـة الإنســانية إيضــاح كيفيـــة الوصـــول إلـــى الحيــاة الحضاريـة إلــى حــدّ مــا؛ لأن الحضـارة نتــاج إنســاني منبثــق عــن حاجــة الإنســان والعناصــر المكوّنــة لهويتـــه الذاتيـــة، بيـــد أن شـــرط النجــاح فـــي هــــذا المســار أن يتـــمّ وصــف هـــذه العناصــر بشــكل واقعــي وجامـــع، مـــع عــــدم إبعـــاد أي واحـــد مـــن العناصــر الوجوديــة فـــي الإنســان لصالــح الغبــاد الأخــرى. إن هـــذا الاتجــاه الواقعـــي الجامــع فـــي معرفــة الإنســان يمكــن أن يتبلــور ضمــن الإنثروبولوجيــا الكلاميــة يتبلــور ضمــن الإنثروبولوجيــا الكلاميــة بشــكل حســن.

طبقــاً للرؤيــة الكلاميــة تعــدّ الهويــة الأساسـية والرئيسـة للإنســان هويــة مفتقـرة، يتــمّ تزويدهـا بجميـع الكمـالات ومـن بينهـا العقـل والإرادة، ويمكـن سـلبها عنــه واسـترجاعها منــه. إن الإنســان هــو الـــ (أنـــا) التـــي تتزيّــن بنـــور العقــل، ومــن خـــلال منح الإرادة لها، تغدو مريدة. وفي هذا البيــن بواسـطة حضـور الــ (أنــا) الإنســانيـة بيـن عنصـري الإرادة والعقـل نحصـل علـى وحـدة تركيبيــة. وهــذا ـ بطبيعــة الحــال ـ لا يعنــى إلغـاء ونفــى الوجــوه الأخــرى فــى الحيـــاة الإنســـانية، مـــن قبيـــل: العواطـــف والرغبات، بيـد أن الـذي يجعـل الإنسـان من مـن الحيوانــات الأخــرى هــو العقــل والإرادة؛ لأرن العقــل والإرادة همــا اللـــذان يعمـــلان علـى تحريـر الإنسـان مـن الرضـوخ لقيـود القوانيــن والســنن. وعلــى هـــذا الأســاس يعــدّ هـــذان العنصــران أساســيان، وســائر العناصـر الأخــرى عناصــر تبعيــة.

وفيما يتعلق بمكانـة العقـل والإرادة ومنزلتهما في الهويية الإنسيانية، يجب القــول أيضــاً: إن هذيــن العنصريــن يتـــمّ تقديمهما إلـى الإنسـان فــي عــرض واحـد، مـع فـارق أن العقـل يقـوم بمهمّـة التشخيص، بينمــا تقــوم الإرادة بمهمّــة الاختيار. وبعبارة أخرى: إن تطبيــق المعطيبات العقليبة وكيفينة توظيفهنا ومسـاحتها يعـدّ نشـاطاً إرادياً. ثــم إن الإرادة ـ خلافــاً للقــول المشــهور فــى الفلســفة الإســلامية ـ ليســت عاطفــة شــديدة، بــل هــى سـلطة واقعيــة للإنسـان علــى فعلــه وتركـه. وبطبيعـة الحـال فـإن العقـل فـي المعنــى الخــاص هــو الكمــال الممنــوح والحجـــة القصـــوى التـــى تنتهـــى إليهـــا حجيــة جميــع الحجــج الأخــرى؛ لأن العقــل هــو المصــدر الوحيــد لتشــخيص مــا فــي الضميــر، وإن العلــم المنبثــق عــن كل دليـل خارجــي إنمـا يتــم تقييمــه بهــذه الحجــة الداخليــة. وطبقــاً للقرائــن الكثيــرة يمكن القول: إن (الجهل) في الاستعمال القرآنــي فــي قبــال (العقــل) إنمــا يكــون بهـــذا المعنـــى، وليـــس بمعنـــى عـــدم العلـم. إن القـرآن الكريـم يعبّــر عــن (عــدم العلــم) بقولــه (لا يعلمــون)، فــي حيــن أننــا نجــد فــى المفهــوم القرآنــي للجهــل استعمال ادعاء العلم والتمييز، والكثير من القابليات العلمية الأخرى، من قبيل: المحاسبة والحفظ والتدبير وتوفير الظــروف أيضـــاً.

ولا ينبغـي ـ بطبيعـة الحـال ـ الغفلـة عـن معطيـات العقـل؛ لأن هـذه المسـألة تحظى بأهميـة بالغـة عـن بلـان النسـبة بيـن علم الـكلام وحقـل الدراسـات الحضاريـة. وعلـى أسـاس التفـاوت بيـن معقـولات ومتعقـلات العقـل، يمكـن أن نعـد أربعـة أنـواع للعقـل، أو أربعــة أنــواع للنشــاط العقلــي، وذلــك علـى النحـو الآتـي:

1ـ العقـل النظـري، الخـاص بحقـل الوجـود العدم.

والعدم. 2 ـ العقـل العملـي، الـذي يرتبـط بمعرفـة مـا يجـب ومـا لا يجـب.

3 ـ العقــل المكتشـف، الــذي يــدرك معانــي الرمــوز والدلالات.

4 ـ العقــل الآلـــي، الـــذي يتابـــع الأوضــاع القائمـة بيــن الأهــداف أو القيـَــم مــن جهــة، والواقعيـــات مــن جهـــة أخـــرى.

إنّ العقــل التدبيــري أو عقــل المعــاش الـــذي ورد التعبيــر عنــه فـــي المعــارف الدينيـــة الـــذي هـــو مـــن شـــؤون العقــل الآلـــي، يعمـــل علـــى تدبيــر شـــؤون حيـــاة

₌مقالة/ الجزء الثاني

قابليات علم الكلام في الدراسات الحضارية

،الباحث : محمد تقى سبحانى

الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأى «الآفاق» بالضرورة ، بل تعبر عن رأى أصحابها

من جهات عـدّة، أُوّلاً: إن الشخص يصادف

الإنســان علــى أســاس القابليــات والأمــور المطلوبــة والمنشــودة. وبطبيعــة الحــال يمكــن الاســتمرار فــي هـــذه التقســيمات، وإثبــات أن العقــل النظــري ــ علــى ســبيل المثــال ــ يـــدرك أحيانــا الأمــور الكليــة، ويــدرك الأمــور الجزئيــة والطبيعيــة أحيانــا أخــرى، ومــن هنــا يمكــن لنــا الــكلام حــول النســبة بيــن العقــل والحــس أيضــاً.

بعـد اتضـاح مفهـوم ومكانــة العقــل،

والإرادة، ننتقــل الآن إلــى الحديــث عــن

■ النسبة بين العقل والإرادة:

النسبة بيـن هذيـن المفهوميـن (العقـل والإرادة). ويمكــن لنــا فـــى هـــذا الشــأن أن ندافع عــن التعقــل بمعنـــى توظيــف العقــل مــن قبــل الإرادة فــى مختلــف التطبيقات. إن التعقل مسار إرادي للحصول على المعطيات العقليـــة، وإن العامـل فـى هـذا المسـار هـو الإرادة وأداتهـا التطبيقيــة هــو العقــل. وإن الــذي ينتــج عن هــذا المســار هــو الــذي يُســمّى بالعقلانيــة، وفى الحقيقية فيإن العقلانيية نبوع مين رؤيــة الإنســان ونظرتــه إلــى نفســه وإلــى العالم المحيط به، حيث يتأثر بتوظيف العقـل ـ أو التعقّـل ـ فيمـا يتعلـق بمختلـف وجــوه الحيــاة البشــريـة وأبعادهــا. إنّ العقــل كاشــف عــن أنّ العقــل لا يقبــل الخطــأ، ولكن عندما تتولى الإرادة الإنسانية توظيف هــذا العقــل، ربمــا عملــت علــى تنظيــم مســار يــؤدي إلـــى خليــط مــن العقــل والجهــل، فيتمخــض بالتالــي عــن وعـــى خاطــئ أو غيــر دقيـــق. إن الإرادة الإنسانية في التعلق لا تكتفي بمجرّد المحركات البسيطة الحاصلية من الداخيل والخارج، بـل تعمـل علـى البنـاء التنظيمـى فــى امتــداد المعرفــة العلميـــة. إن البنــاء التنظيمــي والتنظيــري يتــم مــن خــلال توظيف القابليات الإنسانية في موطن النفس. إن الالتفــات إلـــى موقـــع الإرادة بوصفها عنصراً بناءً، وإلى موقع العقـل بوصف ه كاشفا عن الحقيقة، يحظى بأهميــة كبيــرة؛ ففــى هـــذا المســـار تقــوم الإرادة بنشــاط معرفـــى، لا أنهــا تحصــل على المعرفة بنفسها. فالمعرفة على كل حــال مــن وظائــف العقــل، وأمــا الإرادة فتباشر الفعل والصنع. قـد يتحقـق نـوع مـن الصنـع فـى مسـار التعقـل والمعرفـة، إلا أن صنــع الفعــل يتمخــض عــن الإرادة بشكل متواصل، حيث تكون معرفية حيناً، وعينيــة وخارجيــة فـــى أحيــان أخــرى. إنّ هــذا البنــاء التنظيمــى الصــادر عــن الإرادة، يتمكن من العمل على توسيع المعرفــة أو تضييقهــا. إن هـــذه الرؤيــة التـــى تمتـــد بجذورهــا فـــي الــكلام الإســـلامي ومذهب أهـل البيـت ﴿يُكُّ، تضـع حــداً وفاصــلاً دقيقــاً بيــن الإفــراط والتفريــط فـى المعرفـة، حيـث يذهـب أحـد الجانبيـن إلى اعتبار جميع المعارف الإنسانية من شــؤون العقــل، ويذهــب الجانــب الآخــر إلــى اعتبــار كل معرفــة أمــرا مختلقــاً وخاليــاً مــن التعبيــر عــن الحقيقــة والواقــع. إن هــذه الظرفيــة الإنســانية فــى التعاطــى بيــن العقــل والإرادة هــي التــي يصطلــح عليهــا

وعلــى هــذا الأســاس فــإن الاختــلاف بيــن التعقــل والعقلانيــة الحاصلــة منهــا، يكمـن فــي أنّ الإنســان يصــل إلــى المعرفــة تــارة مــن خـــلال توظيــف العقــل مباشــرة، وتــارة أخــرى يعمــل علــى تنظيــم معرفتــه فـــي إطــار صنــع الإرادة. إن الفصـــل بيــن التعقــل والعقلانيــة يحظــى بالأهميــة

بـ (الإنتـاج الفكـري).

وجــود هذيــن الأمريــن فــى موطــن النفــس مقترنيـن، ويمكـن لـذك أن يتسـبب فـي الخلط بينهما. وثانياً: يمكن لهذا التفريق أن يوضح قــدرة الفــرد فـــى مســـار بنـــاء المنظومـة المعرفيـة، ويكشـف عـن تغـاوت الأنظمــة المعرفيــة ونســبتها إلــى التعقّــل الأصيل. وثالثاً: إنه بحافظ على إمكان ارتباط المنظومــة المعرفيــة بالعينيــة الخارجيــة. وتكمـن أهميــة النقطــة الثالثــة من حيث أنه عند انقطاع الارتباط مع الخارج، لـن يكـون هنـاك إمـكان للإخبـار عـن الخـارج وتحصيـل العلـم أبـداً. ومـن خـــلال الفصـــل بيـــن التعقـــل بوصفــه طريقاً إلى تحصيل المعرفة، والعقلانية بوصفها نتيجـة للجهـود العقلانيـة، يمكن للعقل تزويد الفرد بالمعرفة عن تطابــق المعــارف والمنظومــات المعرفيـــة مـع الواقـع وعدمـه. وعلـى هــذا الأســاس فإن الفرد يواجله على اللدوام توظيفيان للعقل، وهما: التعقل الأولى الذي يصون ارتباط الفرد بموضوع المعرفة، ويمكن الرجــوع إليــه بوصفــه معيــاراً للمعرفــة. والتعقــل الثانــوي الــذي يتــم فــي إطــار

الأنظمــة المنتَجــة. والخلاصــة أن التعقــل هــو حصيلــة العلاقــة الجدليــة والديالكتيكيــة بيــن العقـل وإرادة الفـرد، وهـو منـوط ومقيـد بمقدار الاستفادة من العقل والإرادة. ومع ذلك فإن العقل على كل حال هـو الحاكم والسيد فــى التشــخيص الأول والأخيــر، ويمكـن لـه أن يرصـد حتـى تدخـل الشـهوة فى تشخيصاته؛ لأن العقل من أجل إتمام الحجيــة علــى الإنســان يجــب أن لا يكــون محكوماً للعلاقات الجبريــة الخارجيــة والداخليـة، الأعـم مـن العلاقـات النفسـية والاجتماعيــة والتاريخيــة. وبالاســتناد إلــى سيادة وحاكمية المعرفة العقلية هذه، يمكــن للفــرد فــى كل لحظــة أن يغيّــر مـن الظـروف والشـروط المحيطــة بــل والتاريخيـــة أيضـــا، ويأســـس علـــى أنقـــاض ذلك حياة أخرى أو حضارة جديدة. وإن الدعــوة القرآنيــة إلــى الهجــرة والقيــام، والدعــوة إلــى أصــل التوبــة فــى التحــول الداخلـــى والوجدانـــى، تمثـــل بدورهـــا شاهداً آخر على هذا الإمكان الماثل من الظـروف البيئيــة المحيطــة بالفــرد، وعــدم خضـوع عقلـه وإرادتـه للظـروف والشـروط المحيطــة بــه.

إن مثلـث العقـل والتعقـل والعقلانيــة، والفصل بيـن هـذه الأضـلاع الثلاثــة، مـن شــأنه أن يعمــل علــى إيضــاح الخلــط الشائع فـي هـذا الشـأن. مـن ذلـك ـ علـى ســبيل المثـــال ــ يمكـــن القـــول: إن هيجـــل قـد أخـذ التعقـل خطـأ فـي قبـال العقـل، وتحـدّث عـن حركـة وتكامـل العقـل فـى التاريخ (انظر: هيجل، 1356 هـ ش). كما خلـط أصحــاب النزعــة التاريخيــة فـــي الواقع بيـن العقـل والعقلانيـة، ومـن هنــا عندما تحدث بعض المفكرين، من أمثال: محمـد أركـون أو محمـد عابـد الجابـرى عـن العقــل الإســـلامي أو العقــل العربـــي، إنمـــا كان مرادهـم مـن ذلـك خصـوص العقلانيــة (انظـر: أركــون، ص 65، 1998م؛ طرابيشــى، ص 11، ص 1999م). بـل يبـدو حتـى مـن ابـن خلـدون أنــه قــد خلـط فــى نصوصــه بيــن العقــل والعقلانيــة أيضــاً (انظــر: العــروي، ص343، 1997م).

وهنا رغم تأكيدنا السابق السيادة والحاكمية الحاسمة للعقل، نصرٌ كذلك على أن العقلانية ـ بسبب تأثيرها

المباشــر فــي اتخــاذ القــرارات، وحتــى فــي منظومــة الأفــكار والميــول ــ تحظــى بمكانــة خاصّــة. إن النظــام الأخلاقــي العـام، وأولويــات الإنســان فــي مقــام العمــل رهــن بالعقلانيــة المنظمــة بشــكل مباشــر. وبعبــارة أخــرى: إن قيــادة الحيــاة الإنســانية تتــم عبــر العقلانيــة المنتجــة مــن قبــل الإنســان نفســه، أو العقلانيــة التــي يرثهــا الرغــم مــن أنّ هنــاك ــ كمــا ذكرنــا ــ إمــكان لتشــخيص الآفــات وتغييــر هــذه العقلانيــة للـــي هــذا المقادنيــة المــــي مــن أنّ هنــاك ــ كمـا ذكرنــا ــ إمــكان الشــخيص الآفــات وتغييــر هــذه العقلانيــة علـــى الـــدوام، وأن الفــرد يتمتــع فـــي هــذا المســار بـــالإرادة والاختيــار علـــى نحـــو طبيعـــى. إن الســـر فـــى الحضــور الفعــال طبيعـــى. إن الســـر فـــى الحضـــور الفعــال

للعقلانيــة فــى حيــاة الإنســان يكمــن فــى

بعد تبلـور المصنوعـات الذهنيـة، يمكـن للفـرد أن يُطـلّ مــن نافــذة هــذا النظـام علـــى المعرفــي الصناعــي ويلقــي نظـرة ثانيــة علــى الكــون والإنســان، وتكــون لديــه أفهـام جديـدة. ونطلـق علــى هــذه الأفهام الجديــدة مصطلـح (التعقــل الثانــوي). كمـا يمكــن تســمية هــذا التعقــل الثانــوي بــ التعقــل المعاصــرة التعكيـر وبنــاء النظــام، غالبــاً مــا يســتعين بالأدبيــات والثقافــات والعلــوم المعاصــرة وحتـــى النظــام الأخلاقــي المحيــط بـــه، علـــى التعقــل علـــى التعقــل الأولــي تأثيــراً للغــة والزمــان والمــكان أيضــا، بيــد أن دور هــذه الأمــور فــي مســار الفهــم شــأن تبعــي.

سـان تبعــي.
أمـا الخطـوة الثالثـة فــي التعقــل ــ والتــي
تحــدث فــي ظــل ظــروف وشــرائط خاصــة
فقـط ـ فهــي تكمـن فــي تبلــور (العقلانيــة
الحضاريةأنـــا) المعتقــد فـــي العلاقــات
الاجتماعيـــة، بــل تغــدو القيــم الأخلاقيــة
والإرادة لــدى الأفــراد. وفــي هــذه المرحلــة لا
والإرادة الحــى الأفــراد. وفــي هــذه المرحلــة لا
قــــــــة الفــراد فـــــــ الأفــراد فــرداً
فــرداً هــي مــن يعمــل علــى الدفــع بالجمـع
قدمــاً، بـــل الـــذي يعمــل هــو إرادات الأفــراد
فـــــي إطــار الإرادة الجماعيــــة التــــي حصلــت
فــــي إطــار الإرادة الجماعيـــة التـــي حصلــت
علــى هويــة مســـتقلة نســبياً. وعلــى هــذا
الأســاس يمكــن فـــي الحالــة الحضاريـــة أن
يعمــل العلمـاء والمفكــرون ـ دون أن يكــون
لديهـــم اعتقــاد شـخصي ـ عـــى خدمــة



أنــه لا يقــوم بشــكل متواصــل بالمحاســبة العقلانيــة الواعيــة، بــل علــى أســاس منظومتــه الفكريــة والاتجــاه الســابق عنــده والمتمثـل بالعقلانيــة، بحيـث يقــوم بالكثيــر مــن قراراتــه علــى نحــو لا شـعوري، وهــذا هــو الــذي يكــون جــزءاً مــن هويتــه الثانويـــة.

إن مـن بيـن الأدلــة الأخــرى التــي تــؤدي بالإنسان إلـى الانتقـال بشـكل طبيعـى مــن مرحلــة التعقــل الأولــي، والعمــل بشـکل إرادي علــي صنــع منظومـــة مــن النظريــات والمفاهيــم، هــي المــوارد الآتيــة: إن الإنسان بحاجــة إلــى تنظيــم معلوماتــه وتبيينها وتوضيحها، والعمـل علــى الإجابــة عــن مجهولاتــه مــن طريــق إيجــاد الارتبـاط بيـن معلوماتـه السـابقة. كمـا أنــه يســعى إلــى تطبيــق معلوماتــه وخاصــة إثر التفاهـم مـع الآخريـن. إن الحاجـات الآنفـة تســـتوجب التنظيـــم الفكـــري والتنظيـــر بشـكل طبيعــى، وأمــا فـــى المرحلـــة اللاحقــة ـ وهــي المرحلــة الحضاريــة ـ فإنـه سـوف يتأثـر بمقـدار مـا يسـعى فيــه إلـــى التفاهـــم مــع الآخريـــن بقابلياتهـــم المفهوميــة والمعرفيــة. إن هـــذا التفســير للتفكيــر والمعرفــة الإنســانيـة عـلــى خـــلاف التصــورات الفلســفية والعرفانيــة التـــى لاتقــول فــي الأســاس بوجــود دور لـــلإرادة، وإن مبنـــى هـــذه الرؤيـــة الفلســفية أنهـــا تــرى أســاس النشــاط الجوارحـــي والعملــي للإنسان يكمــن فــي الســعي الجوانحــي والنفســي للإنســـان، أي فعـــل المعرفـــة الإنسـانية، وإن مسـار المعرفــة مــن وجهــة نظر الفلاسفة المسلمين أمر جبري وغير

وتطويــر العلــم الســائد والثقافــة الحاكمــة. إن تحديد هذه المراحل في الحياة الإنسانية والمجتمعات البشرية، يمهد الأرضيــة لإمــكان التوصيــف النفســ لــذات الإنســان وحالتــه، كمــا يجعــل مــن التحليــل التاريخــى ـ الاجتماعــى لمراحــل تطـوّر المجتمعـات البشـرية أمـراً ممكنــاً. والنقطــة الهامــة أنــه قــد تجتمــع فــي آن واحــد وبشــكل متزامــن لــدى الإنســان ثلاثــة أنــواع مــن التعقــل: الأولــى، والثانــوى (الجمعــي)، والحضــاري. وفــي الوضــع الحضاري لا يمكن تحويل حتى علوم مـن قبيـل الفلسـفة إلــى اعتقـاد لــدى الْافـراد، بـل تعمـل بوصفهـا فصــلاً مشــتركاً حاكمـا علـى العلاقـات والإرادات الجمعيــة. وعلـى هــذا الأســاس فــإن العلــم والثقافــة فــى الوضعيــة الحضاريــة وإن كانــت مــن نتـاج الإرادات، إلا أن هــذا النتــاج قــد حصــل بنفســه علــى هويــة مســتقلة، وإن العمــل على تغييرها يحتاج إلى آليات خاصة، ولا يمكن تغيير هذه الهوية بواسطة الإرادات الفرديــة.

والخلاصـة هــي أن جوهــر الحضـارة إنمــا يتبلــور عندمــا يصــل البشــر إلــى إنتــاج مشــترك للقيــم والمغاهيــم والمعتقــدات علــى أســاس الأهــداف والمقاصــد الخاصــة. ومــا ذكرنــاه فــي هــذه المقالــة إنمــا هــو مجــرد إشــارة إلــى قــدرة مبانــي علــم الــكلام الإســـلامي علـــى إعــادة إنتــاج النظريـــات الحضاريــة. ويمكـن تطبيــق مــا يشــبه هــذا النمــوذج تقريبــاً علــى جميـــع القابليــات الآنــف ذكرهــا فــي علــم الــكلام أيضــاً.

المصدر: مجلة العقيدة، العدد : 16، السنة : شهر ربيع الاول 1440هـ/ 2018م